

أبو تمام شيخ البيان

للأستاذ عبد الرحمن شكري

—*—

هو حبيب بن أوس الطائي، وقد سبقه إلى صناعة البيان بشار
ومسلم والحسن بن هاني، ولكنه ظهر بها ظهوراً كبيراً وحاكاه
البحثري وغيره، وكان حقيقاً بسبب كثرة إجادته في تلك الصناعة
أن يسمى شيخ البيان. وكان أبو تمام يقدم الحسن بن هاني ويلقبه
بالأستاذ وبالهاذق وبجاريه في طريقته، ولكن أبا تمام قد برز ابن هاني
أبا نواس في المدح ووصف الطبيعة، وإن لم يكثر منها وفي الرثاء
والأمثال والحكم، وجاراه في وصف الحر والنزل المذكور. وقد سُئل
البحثري عن أبي تمام وعن نفسه فقال: جيده خير من جيدي
ورديي خير من رديته. وهي قوله حق، فقد كان عند البحثري من

الجمع والمزج والترتيب والتعليل. فهي مصادر لتاريخ الأدب لا تاريخ
ومن الكتب التي ألفت على هذا النمط:

١ - طبقات الشعراء لمحمد بن سلام الجعفي المتوفى سنة ٢٣١

٢ - الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦

٣ - معجم الشعراء للرزباني المتوفى سنة ٣٨٤

٤ - بتيمة الدهر في شعراء العصر لأبي منصور الثعالبي

للتوفى سنة ٤٢٩

٥ - الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الأندلسي

للتوفى سنة ٤٢٩

٦ - دمية القصر لأبي الحسن الباخري المتوفى سنة ٤٦٧

٧ - فلاندي المقيان (للفتح بن خاقان الأندلسي المتوفى

٨ - مطمح الأنفس) سنة ٣٣٥

٩ - سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر لصدر الدين

المديني من رجال القرن الحادي عشر

١٠ - رحمة الألباء لشهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩

— ٤ —

وتاريخ الأدب كما نعرفه اليوم عرفه الأوربيون في عصر
نهوضهم؛ سبق إليه الإيطاليون وسار على أثرهم الأمم الأخرى
ولا سيما الفرنسيون. ولهم فيه طرائق مختلفة مبنية على مذاهبيهم
في النقد وقد قدمنا إشارة إليها عبر اللفظ هدام

حذر ذوى الصناعة وإحجامهم ما لم يكن عند أبي تمام الذي كان
أكثر جرأة في صناعته. ولم يكن رديته القليل عن جهل، فقد سئل
فيه فقال: إن أبيات الشاعر كأبنائه فيهم الجميل وفيهم القبيح وكل
منهم حبيب لدى أبيه الذي يعرف أيهم القبيح وأيهم الجميل. ولقد
قال في إساءة ظن الشاعر بشعره ويعني نفسه:

ويسىء بالإحسان ظناً لا كمن هو بابه وبشعره مفتون
ولكنه يقول أيضاً:

من كل بيت يكاد اليت يفهمه حسناً وبعبده القراطس والقلم
ولا غرابة في أن يكون قائل البيت الأول هو قائل البيت

الثاني، فإن نفس الشاعر قد تردد بين الثقة بقوله ثقة ليس بيدها
ثقة، وبين الشك كل الشك في مرتبته. ولعل هذا الشك وإساءة

الظن مما يحفز على استئناف الإجابة وإلى الاستزادة من الإبداع
كيلا يستقيم إلى ما أجاده من سابق قوله. والشاعر الجري

في صنعة البيانية يكون نصب نقد الناقد، وعند ما مدح أبو تمام
أحمد بن المعتصم بقصيدته التي مطلعها: (ما في وقوفك ساعة من

باس) أنكر بعض النقاد أن يشبهه بمن هم أقل منه منزلة في قوله:

إقدام عمرو في سملحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إلياس
ومثل هذا النقد يهدم صناعة التشبيه من أساسها لأنه لم يشبه

المدوح بهم في المنزلة، وإنما يكون للتشبيه وجه شبه خاص
لا يتعداه اتفاق الشبه والمشب به، وهذا النقد يدل إما على الإفراط

في تعلق المدوح والمفاظة مع علم، وإما على جهل بالصناعة البيانية.
وقد دفع أبو تمام حججهم بأن زاد في المدح قوله:

لا تنكروا ضربني له من دونه سثلاً شروداً في الندى والباس
فأله قد ضرب الأقل لنوره - مثلاً من المشكاة والنبراس

وأشال هذا النقد اللفظي كثير فقد انتقدوا أيضاً قول أبي تمام:

دنيا ولكنها دنيا ستنصرم وآخر الحيوان الموت والمهرم
وقالوا: إن الهرم يأتي قبل الموت ولكنه أخره وقدم الموت.

وهذا اهتمام بالصغار، فقد كان في استطاعة الشاعر أن يقول:

(وآخر الحيوان الشيب والقدم) وقد فعل المتنبي ما هو أشد
من ذلك وكانت له عنه مندوحة عند ما قال:

جفخت وهم لا يجفخون بيابهم شيم على الحسب الأغر دلائل
بمى جفخت أى نغرت بهم وهم لا يجفخون بها، وكان

يستطيع أن يقول: (نغرت بهم وهم بها لم يفخروا) فيستقيم

الوزن والأسلوب ولكن هذا لا يثرخ الشاعر الكبير ولا يقدمه. ومثل هذا التقدير يرى به الشعراء أنفسهم عند الملاحظة فقد ورد في كتاب العمدة لابن رشيق أن مسلم بن الوليد انتقد قول أبي نواس ذكر الصبح بسحرة فارتاح وأمله ذلك الصباح صباحاً وقال: كيف يجتمع الارتفاع والملل؟ كما انتقد أبو نواس قول مسلم عاصى الشباب فراح غير مغتدٍ وأقام بين عزيزة وتجلىد وقال كيف يجتمع الراح والإقامة؟ وفي كل من البيتين يريد الشاعر اجتماع حالات نفسية مختلفة الأسباب. على أن أبا تمام قد يأتي في الثقات بما لا يستجد مثل قوله:

بلد الفلاحة لو أنها جبروكل^١ أعنى الخطيئة لاغتدى حراً^٢ أما
(أعنى) هنا أثقل من الرصاص

وقد عد بعض أدباء العصر أبا تمام من شعراء الرمزية، وهذا في رأي غير صواب، لأن كل شاعر يستخدم الرموز، ولكن ليس كل شاعر من أدباء الرمزية. وأستطيع أن أفهم سبب عد أبي تمام من شعراء الرمزية، وإن لم يكن كذلك، فإنه يكثر من استخدام التشبيه والاستعارة والمجاز، فالاستعارة رمز والكناية رمز. ولكن شعراء الرمزية في أوروبا تخطوا منزلة الاستعارات والكنايات وصاروا يرمزون إلى حالات نفسية بأشياء مادية وبالفاظ أو جمل، ويقطعون الصلة بين الرموز وما يرمز لها بها اعتماداً على خيال القارئ وإحساسه وأحلامه وهو اجس نفسه الفاضلة، وأحياناً يستخدمون رموزاً مدلولها أشياء مادية ويرمزون بها إلى تلك الهواجس الفاضلة في الوعي الباطن، وهي لغرضها لا تستطيع عقولهم الظاهرة تفسيرها إلا بتلك الرموز. وهذه طريقة لم يكتب فيها شاعر عربي. أما طريقة أبي تمام فهي طريقة الصناعة البيانية المألوفة وإن كان قد أبدع وأغرب فيها، وشعره شعر الخيال المشبوب بنار الشاعرية، والجيد من شعره يجمع بين القوة والجلالة وإقناع الصنعة الفنية، وهي ليست صنعة ألفاظ تحسب بل صنعة ألفاظ وخيال وإحساس وذكاء وعقل وبصيرة. وترى في قوة الجيد من شعره قوة الخطيب، ولا أعنى أن الشاعر خطيب فللخطيب صفات قد تدابر صفات الشعراء، وإنما أعنى أن لشعره قوة تشبه وقع خطاب الخطيب في الأذن فكأن له صوتاً يسمع. وإذا كان للشاعر نفسه من صفات الخطيب فهي الصفات التي يقترب الخطيب فيها من عبقرية الشاعر ومن بصيرته الناقذة وخياله المشبوب، وليست الصفات التي يقترب فيها الخطيب من فن المثل وهي صفات عالية في فن الخطابة. ولا نأسف لإضاعة شاعر

من شعراء العرب في التكسب بالمدح شعراً كان يكون أعظم شأناً في وصف الحياة والنفس قدر ما نأسف لإضاعة أبي تمام، فإن الرجل كان قادراً على أن يبلغ ما بلغه شعراء أوروبا من وصف الحياة والنفوس ومظاهر الكون؛ على أن في شعره في المدح أشياء من هذه الأشياء. ولعل القارئ يقول: ولماذا لا نأسف على المتنبي قدر أسفنا على أبي تمام أو أكثر، وليس المتنبي بأقل منزلة وهو ذو بصيرة وخيال. ولكن أبا تمام كان عنده من نشوة الصناعة البيانية أكثر مما كان المتنبي؛ وكان المتنبي من قوة الشخصية وإثرها أكثر مما كان لأبي تمام؛ وقوة الشخصية هذه لها أثر في الشعر يظهر في كل أبوابه وتجعل الشاعر يترك بدمه دويماً كما قال المتنبي:

وتركك في الدنيا دويماً كأنما تداول سمع المرء أغملة العشر^١
أما أبو تمام فإننا نقرأ أنه كان مولماً بالخر إلى حد الإفراط أحياناً، ونقرأ أنه سكر مرة في مجلس عظيم وعريده وحمل من المجلس بين أربعة، وأنه كان إذا أخذ صلة أمير أفتاها بين الفناء والموسيقى والرياض والخمر والأوجه الوسيمة. وهذه الأمور ربما كانت تقلل نتاجه وتلهيه عن الشعر لو أنه لم يكن مضطراً إلى قرض الشعر في المدح أو الرثاء لكسب المال، فإننا عند ما نقرأ سيرة الرجل وشعره نميل إلى الاعتقاد أن الحياة عنده كانت شعراً يُعاش وأن الشعر عنده كان حياة تكتب أو شعراً يكتب، وأنه ما كان يلجأ إلى الشعر الذي يكتب إلا إذا سمح له أو اضطره شعر الحياة الذي يُعاش. ولعل هذا هو سبب إقلاقه وسبب موته وقد تخطى الأربعين قليلاً. وإنما نسأل ماذا كان يكون نتاجه لو كان من المعمرين من غير أن يفنى قدرته الحيوية بالحياة؛ ولكن من العبث التأسف، فلمل إفتاءه قدرته الحيوية بالحياة كان من لوازم نشوة الشعرية، وإن قدرته في صناعة البيان كانت من مظاهر انتشائه بالحياة، وانتشائه بالحياة ميز شعر التكسب في قوله عن شعر التكسب في أقوال الشعراء الكثيرين، فحسب التكسب في قولهم ألفاظ ممتدة مما حاولوا إحياءها بصناعة البيان أو بالناقذة، وكانت قوة شعره مستمدة من انتشائه بالحياة، فلم تكن قوة كتلك القوة في شعر بعض الشبان المتدينين الذين يقتولون القوة فيخيل للقارئ أنهم يخفقون ألفاظهم ومعانيهم كي تصيح كما تصيح الدجاجة إذا حاول الطفل الصغير أن يخنقها، وكانت ألوان